مسرحية (عفوا أمريكا) للفنان السوري همام حوت:

انتقاد للسياسات الأمريكية في قالب كوميدي

دمشق ـ ابراهيم حاج عبدي

تعرض حاليا في دمشق مسرحية "عفوا أمريكا"، وهي من بطولة وإخراج الفنان همام حوت، ومن تأليف عمر خشروم، وتشارك في تجسيد الأدوار مجموعة من الممثلين من "أسرة المهندسين المتحدين".

قدم الفنان همام حوت، قبل هذه المسرحية، سبعة عشر عملا مسرحيا حضرها عدد من المسؤولين الكبار في الدولة، وأثارت جدلا واسعا في الأوساط الثقافية والسياسية، وعمله المسرحي الجديد لا يبتعد عن هذا المسار حيث يركز على جملة من المقولات السياسية والإعلامية التي برزت بعد الحرب الأمريكية في العراق في سعي إلى توضيح بعض القضايا والمسائل المتعلقة بالموقف من الولايات المتحدة الأمريكية، وسياساتها في منطقة الشرق الأوسط.

من ناحية الشكل لا يمكن اعتبار هذا العمل مسرحا بالمعنى الدقيق للكلمة، فرغم أن المسرح يعتبر من أهم وأعرق الفنون إذ يطرح أسئلة جادة، ويعالج قضايا إنسانية كبيرة، لكنه ارتبط في ذهن المشاهد العربي بالكوميديا، والإضحاك، والتهريج...ووفق هذا الفهم يمكن وضع هذه المسرحية ضمن إطار مسرح التهريج السياسي، أو الكباريه السياسي الذي يقدم جرعة ثقيلة من السياسة في قالب فني يفتقر إلى أهم مقومات العمل المسرحي.

فالمسرحية تقدم بشكل فني فقير جماليا، فالديكور طيلة فترة العرض (ثلاث ساعات) لا يتغير وهو عبارة عن بهو أحد الفنادق الفخمة، كما أن المخرج يتجاهل تأثير التقنيات الأخرى كالموسيقا والإضاءة، والأزياء وغيرها من الجوانب التقنية ليبقى الرهان الوحيد لدى المخرج هو حركة الممثل التي تنطوي على الكثير من المبالغة، فضلا عن الاهتمام بالمفارقة اللغوية والسجع الساخر، كما أن اللهجة الحلبية التي يتقنها الحوت أسهمت في إضفاء بعض الدعابة والمرح على العمل، وبهذا المعنى فقد نجح الفنان في انتزاع الضحكة من الحاضرين الذين ملؤا القاعة.

والواقع أن المخرج لا يزعم بأنه يقدم مسرحا يطرح تلك الأسئلة العميقة، فهدفه الأساس هو إضحاك الجمهور وتسليته بعد أن مل من الأخبار، والبرامج السياسية، والحوارات الصاخبة على الفضائيات قائلا "أنا مهندس مدني، لم ادرس المسرح بشكل أكاديمي، وهدفي هو إضحاك الجمهور، ولكنني أحاول أن أمرر بعض الأفكار التي تدور في ذهني حول الأمريكان، والضغوطات التي تمارس على سوريا وذلك في إطار كوميدي".

المسرحية هي خلطة عجيبة تتضمن الكثير من المقولات، والمصطلحات والرموز السياسية الحاضرة بقوة في الإعلام، وتحوي بعض الإيحاءات الجنسية في الحركة والحوار، مع اهتمام بمفردات الثقافة الشعبية وتوظيف بعض الفنون كالرقص، مع استخدام أمثلة شعبية شائعة بغرض الاقتراب من المستوى الثقافي للمتفرج الذي بدا بدوره خليطا لا هوية له، وثمة انتقاد لملامح الحياة المعاصرة كالفضائيات والموبايل وغيرها وهو يقدم كل ذلك بنوع من التهريج، والمبالغة، والتهكم بحيث كانت القاعة، وفي مرات كثيرة، تضج بالتصفيق.

اقترب همام حوت في موقفه من السياسة الأمريكية من الموقف الرسمي السوري فقد سخر من الديمقراطية الأمريكية في "أبو غريب" و"غوانتانامو"، وانتقد سياسة الإدارة الأمريكية معتبرا إياها المسؤولة عن المصائب، والمآسي في الشرق الأوسط، ولاسيما العراق، معتقدا أن هذه السياسات ستجعل من ٣٠٠ مليون عربي لأن يصبحوا إرهابيين، فهي من دعمت الحكومات الديكتاتورية في العالم العربي في إشارة إلى دعمها لنظام الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين، واعتمد المخرج كثيرا على المفارقة اللغوية بحيث قال أن الفرق بين العرب والغرب نقطة واحدة، كما أن الإعلام الغربي جعل من العرب (شعب الله المحتار) وأظهر اليهود بأنهم (شعب الله المختار) كما جاء في التوراة، ولم ينس أن يقول بان الشعوب العربية لا تكره الشعب الأمريكي بل تكره السياسات الأمريكية "فحتى اليهود كانوا يعيشون عندنا!!".

وانتقد حوت بشكل غير مباشر نمط الحياة الأمريكية في المأكل والملبس، كما انتقد جانبا من القيم والأخلاقيات السائدة في الحياة الأمريكية إذ ذكر بان سكان ١٣ ولاية أمريكية لا يستطيعون السير ليلا خشية من اللصوص وقطاع الطرق، كما أن الصداقة على الطريقة الأمريكية تختزل في الجنس كما يظهر في مشهد من العمل، وفي موازاة ذلك يمدح حوت بشكل غير مباشر القيم والأخلاقيات في العالم العربي من قبيل تعدد الزوجات الذي يسمح به الدين والشرع، كما ينتقد الموقف الغربي من مسألة الحجاب معتبرا إياها مسالة شخصية على الحكومات الغربية التي تنادي بالحرية، وبحقوق الإنسان أن تنظر اليها على هذا الأساس، وألا تفرض إجراء مغايرا لشعاراتها.

إن توقيت عرض المسرحية يفرض سؤالا آخر، فإذا كان هدف المسرحية هو تعبئة الرأي العام السوري ضد السياسات الأمريكية في المنطقة، فان هذا الهدف يتعارض مع السعي الرسمي السوري إلى فتح قنوات واسعة للحوار مع الولايات المتحدة للوصول إلى نقاط التقاء مشتركة، وكثيرا ما أعربت الحكومة السورية عن استيائها من عدم تفهم الإدارة الأمريكية لوجهة نظرها حيال مختلف القضايا والملفات كالملف العراقي، واللبناني، والفلسطيني، وبهذا المعنى فان المسرحية لا تخدم التوجهات السورية في هذه المرحلة الرامية إلى تبيان مواقفها الصريحة بغرض تخفيف الضغوطات الأمريكية.

من ناحية أخرى فقد عرف عن الفنان حوت بأنه يقدم في مسرحياته انتقادا لاذعا لبعض الممارسات والإجراءات المطبقة في الحياة السياسية السورية إذ ينتقد الأجهزة الأمنية التي تحصي أنفاس الشعب، وكذلك جهاز القضاء الذي يعتبره سياسيا أكثر منه قضائيا، وينظر إلى المؤسسة التشريعية (البرلمان) على أنها لا تملك رأيا مستقلا فهي تشرع السياسة الرسمية، ولا تملك هامشا للرفض في أي قضية، غير أن جرعة النقد في هذا العمل للوضع الداخلي السوري قد خفف إلى حد بعيد، ويبرر همام حوت هذا الأمر بان "النظام في هذه المرحلة لا ينتظر منا النقد بل بحاجة إلى أن نؤيده ونقف إلى جانبه في وجه الضغوطات الكثيرة" لتنتهي المسرحية بشعار ينطوي على التحدي والرجاء في الوقت نفسه: "عفوا أمريكا...كرامة الإنسان العربي السوري بالكرة الأرضية".

ذكريات رحلة تأبينية لجيكور السياب

فالح الحُمراني

"جيكور ياجيكور
شدت خيوط النور
ارجوحة الصبح
فاولمي للطيور
والنمل من جرحي"

وقع نبأ موت الشاعر الكبير بدر شاكر السياب في ٢٤ كانون اول (ديسمبر) ١٩٦٤علينا موقع صدمة، وشعرت وزملاء جمعتنا محاولات كتابة الشعر والقصة وقراءة الاعمال الادبية ومشحونون برغبة التغيير والانقلاب على الواقع المعاش حينذاك، شعرنا بالخسارة الفادحة، زادها ما نشرته الصحف العراقية عن ان ثمة ستة اشخاص فقط شاركوا في تشييع جنازة رائد الشعر الحر، وانه مات غريبا، في مستشفى في الكويت. وقال الشاعر المصري احمد عبد المعطي حجازي في مقالة تابينية رقيقة في مجلة الهلال الصادرة حينذاك" لقد مات اعظم شاعر عربي معاصر" ومجد قصيدته الرائعة " انشودة المطر"، لقد الهبت كل تلك الاحداث، وربما عوامل اخرى زادتها، في ان موت الشاعر العظيم يجب ان لايمر دون ضجة، وعلى الناس وبعيدا عن الحكومة ومؤسسة الدولة تأبين شاعرهم الكبير، وربما داخلتها شئ من مشاعر الطفولة الطازجة والرغبة لاجتراح فعل ما، وعدم تفويت حدث كبير الم بالامة وبالوطن ان يمر هكذا، كل ذلك الهمني وصديقي عبدالحسين المالكي الذي كان يكتب الشعر واصبح بعد ذلك مهندسا واحتفظ بشفافيته وروح غذاها الشعر، ان نزور جيكور راس مسقط الشاعر الكبير، التي رسمت قصائده عنها في اذهاننا صورة خيالية، قريبة من ان تكون منطقة الخلاص الابدي حيث السلام والامان والحب الابدي بعيدا عن اليومي الزائل والتصاقا بالمستديم.

لقد لاح لنا حينذاك اننا نقوم بمغامرة من اجل ذكرى شاعرنا، السفرنحن ابناء الرابعة عشرة بمفردنا من مدينة العمارة الكسيحة الى البصرة الميناء الصاخب، ومن ثم ... الى جيكور التي لم نعرف اين تقع بالضبط، سوى انها في ضواحي ابي الخصيب. وصلنا (أبو الخصيب) بعد منتصف النهار، وبدت لنا المدينة بائسة مثل كل المدن العراقية القاحلة، شارع رئيسي مترب وبيوت من الطين ذات طابق واحد ووجوه متعبة، واقترنت ابو الخصيب في مخيلتنا بثورة الزنج في البصرة حيث انطلقت من هناك شرارتها او كانت احدى بؤرها الرئيسية كما قرأنا في دراسة فيصل السامر الرائعة والوحيدة حينذاك عن ثورة الزنج، ورحنا نسأل عن جيكور موطن بدر شاكر السياب. ولم يعر لنا احد الاهتمام فابناء البلدة نسوا او لم يسمعوا بواحد من افضل مواطنيهم، الذي جلب اسمه، الشهرة والمجد لبلدتهم، لايقل شانا عن شهرة ثورة الزنج. انه الشاعر السياب. لقد نسوا ان القبائل العربية في غابر الازمنة كانت تقيم الاحتفالات بمولد الشاعر بينها وتروح تفتخر به بين القبائل الاخرى فكيف بك بالسياب الذي كان واحدا من اولئك الذين احدثوا طفرة ونقلة في مسيرة الشعر العربي برمته.

واخيرا تطوع معلم بمرافقتنا الى جيكور. لاح طيبا وكان مخمورا بعض الشئ، قال انه يمت بصلة لعائلة السياب، واشترط ان ندفع عنه اجرة الحافلة التي تقلنا الى جيكور القرية النائية ذهابا وايابا، ولم يكن امامنا سوى خيار الموافقة مع الامتنان له. ولاحت جوانب الطرقات من وراء زجاج نافذة السيارة التي اقلتنا ثرية باللون الاخضر والماء والسماء الزرقاء الصافية، بيد ان الطرقات كانت وعرة وكاننا نعبر طرقا لم يمر بها الانسان، وامتدت قرى وبيوت تفوح من جوانبها رائحة الفقر والعوز وانها تئن من شظف العيش وغياب العدالة ومن الاهمال.

صدمتنا جيكور التي سيقول فيها السياب:

جيكور، جيكور: اين الخبز والماء؟
الليل وافى وقد نام الادلاء
والركب سهران من جوع ومن عطش
والريح صر وكل الافق اصداء
بيداء ما مداها ما يبين به
درب لنا وسماء الليل عمياء
جيكور مدي لنا بابا فندخله
او سامرينا بنجم فيه اضواء

غابة غير متناهية من النخيل. ورحنا نسير في دروب ضيقة بينها حتى بلغنا بيوت عائلة السياب. " خرائب فانزع الابواب عنها تغدو اطلالا" كما سيقول عنها السياب بعد ان يصبح شاعرا كبيرا. وشاهدنا البيت حيث ولد السياب. قلعة كبيرة، لايمكن ان تفتخر بمزاياها المعمارية. انه باحة كبيرة تحتوي على غرف، مما يوحي ان عائلة السياب كانت كبيرة ومعروفة في المنطقة.

واشار لنا المعلم الى شباك في بيت مقابل وقال انه " شباك وفيقة":
شباك وفيقة في القرية
نشوان يطل على الساحة
كجليل تنتظر المشية
وينشر الواحة
ابكار يسمح بالشمس
ريشات النسر وينطلق

وذهب بنا الى نهر بويب، الذي ارتسم في اذهاننا من خلال قصائد السياب عنه بانه يعبر عن الخلود ومصدر الديمومة ونضارة الحياة. وكما كانت خيبة الامل انه جغرافيا بعيد عن الصورة الشعرية التي اضفاها السياب عليه. فبدا لنا ساقية طويلة تخترق غابات النخيل ولكن ماءها جار وحيوي، اذن فهو ماء الحياة. ولماذا سمي بويب؟ ومن اين ياتي بمائه؟ لم تبد تلك الاسئلة لنا بانها اسئلة حيوية، لاننا نتعامل مع نص شعري لاجغرافي:

اليك بابويب
يانهري الحزين كالمطر
اود لو عدوت في الظلام
اشد قبضتي تحملان شوق عام
في كل اصبع كاني احمل النذور
اليك من قمح ومن زهور

وتجولنا في غابة النخيل اللامتناهية، كانت " الريح تسف" كما يقول السياب، وتميل كل نخلة بهدوء كانها تلامس جارتها فينشأ حفيف رقيق وشفاف ليخلق همسا متواصلا، ولغة لا يمكن ادراكها الا بالحس والشعور الداخلي. انها لغة الروح. وحينها خطر لي، من اجل ان تفهم السياب عليك زيارة هذه الانحاء، وان شخصا كالسياب لابد من ان يخلق شاعرا بفضلها. وهناك في تلك الاصقاع النائية والبدائية تعثر على قاموس السياب الشعري، ومنها مصدر قصيدته.

ولم يجب المعلم الكريم على اسئلة كثيرة كانت تلح علينا عن شخصية السياب، كانسان وكشاعر، ولذلك اكتفى بان اعطانا عنوان ابن عمه وصديق طفولته وشبابه (مع شديد الاسف نسيت الان اسمه) الذي دعانا بكرم لزيارته في منطقة الونبي الصغير في البصرة.

وقبل ان نتوجه الى زيارته، قررنا ان نضع اكليلا من الزهور على قبر الشاعر الكبير الكائن في مقبرة الزبير. ومع شديد الاسف، لم نشهد حينها ان قبر السياب الكبير كان يتميز عن القبور الاخرى بلوحة او رقيم، لتضفي على القبر ما يليق بمكانة نزيله في الثقافة العربية والعراقية، ووضعنا الإكليل المتواضع ونحن نشعر بالغصة.

وراح يحدثنا ابن عمه الرجل الوقور بود وحب واسى عميق عن السياب، الذي كان قريبا له ومحبا له كشاعر كبير. فالسياب كأي شخصية مبدعة عبقرية كان موهوبا في العديد من المجالات، وخاصة برقة احساسة. واتذكر انه خص منها ان بدرا كان عازفا ماهرا على الناي، وانه كان يرسم وله ذوق لغوي رفيع ومتوفقا في الدراسة وامتاز دائما عن اقرانه. وضمن ردوده على اسئلتنا قال ان السياب لم يترك مذكرات او يوميات نثرية خاصة، وبقناعته فان مذكرات السياب او سيرته الذاتية الحقة، هي قصائده. وصدق فيما قال. وعن التقلبات السياسية التي اشتهر السياب بها فان السياب كان حساسا ورقيقا ومن السهولة التاثير عليه لذلك نراه والحديث لابن عمه، انتقل من انتمائه الشيوعي الى قومي ومن ثم تعاون مع مؤسسة الثقافة الحرة الاميركية مما اثار اللغط غير العادل حوله، وتحدث باسف بالغ عن ظروف دفن وتشييع السياب، ناهيك عن العدد القليل الذي رافق جنازته. وحدثنا عن ان مدير عام الموانئ العراقية الذي كان مقره في البصرة مزهر الشاوي، قد امر حال نبا موت السياب عائلته المكونة من زوجته اقبال ونجله ابن الستة اعوام حينذاك غيلان، اخلاء البيت الذي كانوا يسكنوه العائد لادارة الموانئ. فالسياب كان محسوبا موظفا في مديرية الموانئ. وافاد بان الشرطة حضرت مساء يوم التشييع واخلت البيت بالقوة، ورمت باثاث عائلة الشاعر بلا رحمة على قارعة الطريق فاضطرت عقيلته وطفلها الانتقال الى بيت اخيها. واعطانا عنوان اخ عقيلة السياب اقبال التي كانت تسكن عند اخيها، لزيارتهم.

ورغم ان اخ اقبال، استقبلنا بترحاب، الا انه ابلغنا باستحالة الالتقاء بها، لعدم مرور ٤٠ يوما على موت " بعلها" السياب. واعتذر ايضا عن ان ينظم لقاء مع نجل السياب "غيلان" الذي ذهب توا الى المدرسة الابتدائية، وفسر ذلك بان العائلة لم تبلغ الطفل بموت ابيه وقالت له ان اباه في سفر، وان التقاءه بغرباء سوف يثير شكوكه.

استقبلنا كل ذلك بتفهم. واكتفينا بالحديث عن السياب وعلاقاته العائلية وعلاقته بزوجته "اقبال" التي صدر ديوانه الاخير باسمها وكتب اخوها هذا مقدمته.

بعد فترة من عودتنا الى العمارة وصلتنا رسالة رقيقة بخط تلميذ الصف الاول ابتدائي غيلان، يعرب فيها عن امتنانه لزيارتنا له ورغبتنا في التقائه واسفه انه كان حينها قد اوى الى فراشه.

هكذا يعيش الشعراء بيننا، وهكذا تتعاطى مجتمعاتنا مع شعرائها، وليس معهم وحسب، ناسية ان الشاعر الكبير ظاهرة سحرية لاتتكرر وكنز لايمكن التفريط به هكذا، فهل يمكن القول انها مجتمعات حية، طامحة لمستقبل افضل، وقابلة للصعود على سلم التطور والارتقاء. التعامل مع السياب عندما كان على قيد الحياة وميتا كان اشارة خطر، فهل نستفيق؟

اين ابي وامي... اين جدي واين ابائي
لقد كتبوا اساميهم على الماء
ولست براغب حتى بخط اسمي على الماء
وداعا ياصحابي يا احبائي
اذا ما ما شئتموا ان تذكروني
فاذكروني ذات قمراء
والا فهو محض اسم تبدد بين اسماء
وداعا يا احبائي

حداد لثلاثة أيام
بعد رحيل كاتب باراغواي الكبير أوغستو روا باستوس

رحل في السادس والعشرين من نيسان الماضي، الكاتب أوغستو روا باستوس، الحائز على جائزة سرفانتيس عام ١٩٨٩ في (أسونسيون)، وهي المدينة ذاتها التي ولد فيها، عن عمر ناهز السابعة والثمانين. وكان مؤلف رواية "أنا الأعلى" قد إنتابته نوبة قلبية مفاجئة لم يستطع الشفاء منها، و أعلن رئيس جمهورية باراغواي، الحداد الوطني لمدة ثلاثة أيام لوفاة كاتب باراغواي الكبير، وكان باستوس قد هاجر من باراغواي عام ١٩٤٧، بسبب الحرب الأهلية، متوجهاً الى الأرجنتين، حيث عاش و كتب فيها حتى العام ١٩٧٦، ومن هناك سافر الى فرنسا، ليكمل مشوار الغربة حتى عقد التسعينيات، وهو العقد الذي شهد عودته الى وطنه، باراغواي.

يعد اوغستو روا من أبرز الأسماء في أدب باراغواي المعاصر، و من الذين تركوا بصمات واضحة في أدب أمريكا اللاتينية، في النصف الثاني من القرن العشرين، وإشتهر من خلال حصوله على جائزة سرفانتيس، و تأليفه لرواية (أنا الأعلى (1974 –و(إبن الرجل – 1960)، من بين أكثر من عشرين عملاً أدبياً، ما بين الشعر والقصة والنصوص المسرحية. وقد عرف عن روا، أيضاً، ككاتب سيناريو سينمائي بارز في الأرجنتين، حيث تحولت قصصه الى أشرطة سينمائية على يد كل من المخرجين مانويل أنتين في (معاقبة الخائن – 1966)والمخرج أرماندو بو (رعد بين الأوراق (1958 –والمخرج لوكاس ديماري (إبن الرجل .(1961 –

كان روا باستوس قد ولد في ١٣ حزيران عام ١٩١٧، وترعرع في حضن عائلة من الطبقة الوسطى في (أسونسيون)، ولكنه أمضى فترة صباه في (إيتوربي دي مانورا)، وهي قرية معروفة بإنتاج السكر، تقع وسط باراغواي، وكان للصحافة التي مارسها روا دور كبير في إبراز الجانب الإنساني والأدبي في أعماله، حيث شغل منصب رئيس تحرير صحيفة (البابيس) اليومية، والصادرة في باراغواي، وعمل مراسلاً صحفياً في لندن العام ١٩٤٥، الى جانب تأثره بأعمال الكاتب الأرجنتيني أوراسيو كيروغا، وأعمال رافائيل باريت، ويلاحظ تأثير الكتاب الكلاسيكيين بشكل جلي قصائده التي تضمنها ديوان (عندليب الفجر وقصائد أخرى 1942 –)، و(شجرة البرتقال المتوهجة). رغم ذلك، فأن صدى الخبرة كان ينعكس في أعماله الأدبية بصورة جلية.

طرق روا باستوس العديد من الأبواب، بحثاً عن لقمة العيش، فمرة عمل بصفة مترجم، وأخرى مصحح إمتحانات، ونادل في فندق، و منظف زجاج، و بائع حاجيات مستعملة.

ومن بين أعماله الروائية الأخرى، رواية (الأرض البور (1966 –و (الخشب المحترق (1967 –و(مفتش الضرائب (1993 –و (مدام سو .(1996 –كان الكاتب أوغستو روا باستوس يعمل بشكل حر، غير أن إلتزاماته الوحيدة كانت تلك التي لها علاقة بشعوب أمريكا الجنوبية، وهي تعتبر بالنسبة له مهمته الأساسية. وقد قضى أكثر من نصف حياته في المنفى، مناضلاً من أجل أن تكون أمريكا الجنوبية حرة من الديكتاتورية.